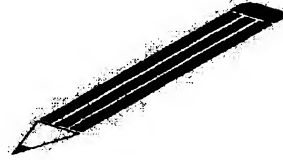


السلطة التاريخية للنص

أ.د. عبد الرحيم الكردي



مفهوم السلطة التاريخية :

يُعدُّ مفهوم (السلطة) من أكثر المفاهيم الثقافية التباساً، بسبب تطوُّره السريع وبسبب تنوُّع المجالات التي يُستخدم فيها، ولتعددُ المصادر التي يستقي منها دلالاته في كل مجال من هذه المجالات، كما أنَّه مُصطلح سيئ السمعة "تبعث منه رائحة كريهة" كما يقول الكاتب الأمريكي (ألفين توفلر) في كتابه (تحوُّل السلطة) ج1 ص17 ليس بسبب مفهوم السلطة نفسه، فهو - رغم ضبابيته - مفهوم مُحايد مثل سائر المفاهيم الثقافية، ولكنَّ لأَنَّهُ - نتيجة للممارسات الحياتية لأصحاب السُّلطة على مرِّ التاريخ - ارتبط في أذهان النَّاس بالقهر والظُّلم والبطش والغلبة، سواء أكان ذلك مُتعلِّقاً بالسلطة العسكرية التي ارتبطت بالاحتلال والبطش والدمار، أو بالسلطة الإدارية التي ارتبطت بالاستبداد والقهر، أو بالسلطة الاقتصادية وبالسلطة المعرفية اللتين ارتبطتا بالاحتكار الاقتصادي والمعرفي، أو بالإقصاء العلمي والتَّجهيل الحضاري.

ولذلك فإنَّ أكثر الكلمات التي تُشتقُّ من مادة (سلط) في المعجم العربي تدورُ حولَ معاني القوَّة والغلبة والحدَّة والبطش، إذ يُوصف الرَّجُلُ بأنَّه مُتسلِّط إذا كان جباراً مُستبدّاً، وتُوصف المرأة بأنَّها سليطة إذا كانت طويلة اللسان صخَّابة وفي كلامها حدَّة وسوء أدب (راجع مادة سلط في القاموس وفي تاج العروس) فإذا تخلَّصت الكلمة من مساوئ هذه الظلال التي أحاطت بها استخدمت اللغة العربية لها صيغة (سلطان) للدلالة على السلطة الشرعية (أي الحكم) كما جاء في قول الله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء/153) أو السلطة المنطقية، (أي البرهان والحجة) كقوله تعالى : ﴿كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ

أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ
بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿الأنعام/81﴾ .

وقد استُخدمت الكلمة في الكتابات العربية المعاصرة للدلالة على المرجعيات الدستورية التي تُسير حركة الأفراد داخل المجتمع، مثل مُصطلحات " السُلطة التنفيذية (الحكومية) ، والسُلطة التشريعية (البرلمان) ، والسُلطة القضائية، وفي مجال علم النفس استُخدم مُصطلح "الشخصية التسلطية" للدلالة على نمط خاص من الشخصيات الجامدة التي تسير في الحياة حسب مجموعة من المبادئ أو النصوص المذهبية أو الأيديولوجية الثابتة، والتي تُؤدّي إلى تصلّب عقل هذه الشخصية في المواقف التي تتطلّب مرونة وعقلانية، وذلك مثل الشخصيات التي أفرزتها النّازية والفاشية في أوروبا قبيل الحرب العالمية الثانية .

فإذا نظرنا إلى مُصطلح (السُلطة) بشكل مُحايد، وبعيداً عن مُلابساته التاريخية، فإنّنا نجده لا يعدو كونه أحد المعاني الخاصة بالعلاقات الإنسانية غير المتوازنة، (علاقة السيطرة والخضوع) فالإنسان عادة في علاقته بالآخر يُمارس شكلاً من أشكال السُلطة، أو يخضع لنوع من أنواعها، سواء أكان هذا الآخر إنساناً فرداً أو جماعة أو حيواناً، أو جماداً، أو قوّة خفية، أو فكرة، أو شيئاً متوهماً لا وجود له إلا في مخيلة أسير هذه السُلطة

فالسيطرة والخضوع هي العلامة التي يُمكن التعرف من خلالها على نوع السُلطة أو قوّتها، فحيثما وُجدَ عنصر مُسيطر وآخر خاضع له وُجدت السُلطة، أي حيثما تكون هناك طاقة قوية موجبة فاعلة وأخرى سالبة ضعيفة تُمّ يحدث بينهما نوعٌ من انقياد الضعيف للقوي تكون هناك مُمارسة للسُلطة، قد يكون مصدر هذه القوّة هو قوّة البندقية .



كما قال ماو تسي تونج : "السُّلْطَة فَوْهَة البندقية" (تحوُّل السُّلْطَة ج1 ص15)، وقد يكون هذا المصدر المال، وقد يكون المعرفة، كما قال فرنسيس بيكون : "المعرفة في ذاتها سُلْطَة" (المرجع السابق)، وقد يكون مصدر السُّلْطَة هو المنطق والحُجَّة والبرهان، وقد يكون الجمال، وقد يكون الشهوات والملاذ الجسدية. وقد تكون السُّلْطَة مُجَرَّد أوهام، وقد يكون أشياء أخرى .

في كلِّ الأحوال فإنَّ هذه العلاقة تجعل الطرف الضعيف يُسلم بجزء من حرِّيته وإرادته الذَّاتية للطرف القوي، على أنَّ بعض أشكال هذه العلاقة قد يكون مقبُولاً بل محموداً في جميع الثقافات مثل سُلْطَة المنطق والحُجَّة والبرهان، لأنَّ الانقياد لها ليس ناشئاً من الخُضوع، بل من الرضا والقبول، ومن أشكال هذه العلاقة ما يكون مقبُولاً في ثقافة دون الأُخرى مثل سُلْطَة الأبِّ على ابنه وسُلْطَة المُعلِّم على تلميذه وسُلْطَة الزوج على زوجته .

والإنسان بطبعه مُتطلِّع إلى امتلاك أسباب السُّلْطَة : القوَّة والمال والمعرفة والمنصب الرُّفيع، كما إنَّه عند إحساسه بالضعف قابل للخُضوع، باحث عن سُلْطَة تُكَبِّله، ورُبَّما صنع أصنامة بيديه، مثل تقديسه لأقوال السَّابِقين وأفعالهم، ومثل تمسُّكه بالعادات والتقاليد البالية والخرافات والأساطير واعتقاده في قُدرة التمايم والطلاسم وغيرها على التصرف في مصائر النَّاس .

والسُّلْطَة التاريخية ليست إلا نوعاً من هذه السُّلْطَة وفرعاً من فُرُوعها، لكن مصدر السُّلْطَة التاريخية ليس السيف، بل إنَّ السيف غالباً ما يكون خادماً لها، وليس المال لأنَّ المال يُبذل رخيصاً في سبيلها، وليس المنطق أو المعرفة والحكمة لأنها نقيض المنطق والحكمة، بل



مصدرُها هو سحرُ التاريخ، العِراقة والقَدَمُ ورائحة الآباء والأجداد، ذلك السحر الذي يجعل العصا أو اللوحة الفنية لا يُساويان شيئاً في عصرهما، فإذا مرّت عليهما بضع مئات من السنين يبعأ بآلاف الجنيهات، بل ربّما مسّتُهُما نفحةٌ من القداسة إذا ما أُتيحت لهما بعض العقول الضعيفة، لا لشيء إلا لأنَّهُما قديمين، ومثل ذلك يحدث للمنازل وللنصوص القديمة، وللعادات والتقاليد القديمة، ولأقوال السّابِقين وأفعالهم .

الإسلام والسلطة التاريخية :

وهكذا نجدُ أن أكثر العناصر التي حظيت بالنصيب الوافر من السُّلطة على مرّ التاريخ - بعد الآلهة والأصنام والأوثان والطُغاة المُستبدّين - هي الآثار التي يتركها الآباء والأجداد في أبنائهم وأحفادهم، والتي يُكسبها مرور الزّمان قدسية وقوّة ربّما تفوق قوّة السحر، ممّا قد يدفع الواقعين تحت تأثيرها إلى التضحية بأنفسهم في سبيل الدِّفاع عنها، وهي السُّلطة التي أشار القرآن الكريم إلى وجودها في المُجتمع العربي في الجاهلية - بل جعلها إحدى العلامات المُحدّدة لمفهوم الجاهلية - بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة/170) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة/104) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف/28) ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِتِلْكَ أَعْمَاءَ وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس/78) ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء/53) ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء/74)



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوَّلُوا
كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (لقمان/21) ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا
وَجَدْنَا آبَاءُنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الزخرف/22)
﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ لَّا نَرْسِلَ فِيهَا مَثَرُفُوها إِنَّا
وَجَدْنَا آبَاءُنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف/23).

بل إن أهل الجاهلية فسروا تلك القوة التأثيرية التي حملتها الآيات
القرآنية عند سماعهم لها على أنها سلطة جمالية شعرية أو سلطة ملفقة
من هذا النوع التاريخي، أي أنها نصوص سلطوية كتبها الأولون،
ولكنهم لم يؤمنوا بها لأنها حسب زعمهم منقولة من أمة أخرى من غير
آبائهم وأجدادهم، أي (أساطير الأولين) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا
إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (الفرقان/4)
﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام/25) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (النحل/24). ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون/83) ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ
تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان/5) ﴿إِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم/15).

ومن سمات هذه السلطة التاريخية أنها جماعية وليست فردية،
وأنها مخالفة للظاهرة منحرفة عن السواء، أي أنها تستمد بقاءها من
الانسياق الأعمى لروح القطيع وليس من البحث عن الحق والصدق،
كما أنها لا تعتمد على المنطق والعقل والحجة، بينما الأصل في السلوك
الإنساني السوي أن يعمل الإنسان عقله وأن يبحث عن الحقيقة وأن

يعترف بها إذا ظهرت له ، ممّا دفع ابن قُتيبة إلى القول : " الناسُ أسرابٌ طيرٌ يتَّبِعُ بعضهم بعضاً ولو ظهر لهم مَنْ يدَّعي النبوةَ . مع معرفتهم بأنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء ، أو مَنْ يدَّعي الربوبيةَ . لوجدَ على ذلك أتباعاً وأشياعاً " {ابن قتيبة (تأويل مختلف الحديث) ص14} ، ومن ثَمَّ فإنَّ هذه السُّلطة تضعفُ عندما يزدادُ الوعي لدى المتلقين ، وتقوى عندما ينتشرُ الجهلُ ويزدادُ الشعور بالضعف والإحساس بالهزيمة .

ولذلك فإنَّ الله تعالى شَبَّهَ الاتِّباعَ الجماعي الأعمى من الجاهلين للآباء والأجداد دون تدبُّرٍ وتفكيرٍ بصنيع البهائم في قوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (البقرة/171) ، يقول الزمخشري : مثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم مثل البهائم التي لا تسمعُ إلَّا ظاهراً الصوت ولا تفهم ما تحته ، فكذلك هؤلاء يتَّبِعُونَهُمْ على ظاهرِ حالهم ولا يفقهون أهُم على حقٍّ أم باطلٌ ؟ {الكشاف . (ج1/ص154)} ثَمَّ يقول : ما أقبح التقليد والقول المتقبَّل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للمُقلِّدين حينَ استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم ، وهُم مُعتقدون أنَّهم على شيء ، وجادُّون في نصرته مذهبهم ، ومُجادلون لأهل الحقِّ عن باطلهم { (الكشاف . (ج4/ص233)} .

ويقول ابنُ كثير في تفسيره لقول الله تعالى ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : " أي : فيما هم فيه من الغيِّ والضلالِ والجهلِ كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها ، بل إذا نُعقَ بها راعيها ، أي : دعاها إلى ما يُرشدها ، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه ، بل إنَّما تسمع صوته فقط { ابن كثير . (ج1/ص480)} .



على أن الإسلام لم يقضِ تماماً على هذه السُّلطة في المُجتمع الإسلامي، رغم ذمُّه لها وتحذير المُسلمين من مخاطرها، لأنها آفة مُتصلة بالضعف الإنساني في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، لكن هذه السُّلطة أصبحت تُطلُّ برأسها بعد ظهور الإسلام بينَ الحينِ والآخر بينَ المُسلمين أنفسهم في أوقات ضعف العقيدة، أو في وقات التخلُّف الحضاري، وانعدام المُجدِّدين؛ ولذلك فإنَّ الشَّيخ محمد عبده في تفسيره للآية السابقة التي يقول الله تعالى فيها: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَّارِ يَنْعَقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (البقرة/171).

يرى أن هذه السُّمة الجاهلية ليست خاصة بالعرب قبل وأثناء ظهور الإسلام وليست فترة زمانية مُنتهية، بل هي عامة قد تظهر في أي عصر، فالجاهلية عنده مفهوم عام له شروط وعلامات متى تحقَّقت في طائفة أو في عصر أو في مذهب وُصف بالجاهلي، ولو كان بعد ظهور الإسلام، وأحد هذه الشروط هو الانصياع لهذه السُّلطة، يقول: "والآية صريحة في أنَّ التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وأنَّ المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقلَ دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنعَ به، فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل - ولو كان صالحاً - بغير فقه، فهو غير مؤمنٍ، لأنَّه ليس القصد من الإيمان أن يُذللَّ الإنسان للخير كما يُذللَّ الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكَّى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير لأنَّه يفقه أنَّه الخير النَّافع المُرضي لله، ويترك الشرَّ لأنَّه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرَّته في دينه وديناه، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده، فلا يأخذه بالتسليم لأجل آبائه وأجداده، ولذلك وصفَ الله الكافرين بعد تقرير المثل بأنَّهم (صُمٌّ) لا يسمعون الحقَّ سماعَ تدبُّر وفهمٍ، (بُكْمٌ) لا ينطقون به عن اعتقاد وعلمٍ، (عُميٌّ)

لا ينظرون في آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبين لهم أنه على الحق، (فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) مبدأ ما هم فيه ولا غايته كما يطلب من الإنسان، وإنما ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان، ولذلك اتبعوا مَنْ لا يعقلون ولا يهتدون، فالعاقل لا يُقَلَّدُ عاقلاً مثله، فأجدرُ به ألا يُقَلَّدَ جاهلاً ضالاً هو دونه " {تفسير المنار (ج1/ص77) }

على أن بعض العلماء لم يكتفِ بالنظر إلى التقليد على أنه مجرد حائل بين المقلدين وبين الإيمان القائم على حرية الإرادة، بل نظروا إليه على أنه نوع من الشرك، لأنه واقع في إطار الشرك الذي حذر منه الله تعالى في قوله: ﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْذُ وَلِيًّا ﴾ " ذكر مقاتل أن سبب نزول هذه الآية، أن كُفَّارَ قُرَيْشٍ قالوا: يا محمد، ألا ترجع إلى دين آبائك؟ فنزلت هذه الآية. وهذا الاستفهام معناه الإنكار؛ أي: لا أَخْذُ وَلِيًّا غير الله أتولاه، وأعبده، وأستعيثه " { زاد المسير. (ج2/ص305) } .

وينظرُ الشيخ محمد عبده إلى الأمر من زاوية أخرى، إذ يقول: " هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أُغْلِقَتْ في وجوه المتأخرين، ليرفع بذلك منازل المتقدمين " { الإسلام والنصرانية ص118 }، ويرى أن عبادة النصوص عند المقلدين جففت منابع التسامح في الفكر الديني، إذ حول الخلاف في الرأي إلى عصبية مذهبية وعداوات عصبية، إذ أصبح كل فريق يكفر الآخر ويرفضه جملة، وتحولت الآراء التي تحتل الصواب والخطأ إلى عقائد يدافع عنها بالسيف { المرجع السابق } .

ويرى الشيخ محمد عبده أن هناك طائفتين من المستفيدين من جمود النصوص ومن عبادتها: الطائفة الأولى هم سدنة هذه النصوص، وهم القائمون على حراستها وتأويلها، وارتبطت حياتهم بتقديسها، بل



اكتسبوا هم القداسة من القيام عليها ، ويُحيطُ بكلِّ واحدٍ من هؤلاء النَّاسِ طائفةٌ من الأتباع والمريدين الذين ينساقون خلفهم من غير وعي ، وقد أطلق فولتير على هذه الطائفة لقب (عبيد الرهبان) ، أمَّا الطائفة الثانية فهم السَّاسة الذين يقول عنهم : يفرعهم " الخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد فتنتشر عدواه فيتنبَّه غافلٌ آخر ، ويتبعه ثالثٌ ، ثُمَّ ربَّما تسري العدوى من الدين إلى غير الدين إلى آخر ما يكون من حرية الفكر " { المرجع السابق ص 110 } .

ويشرح أمين الخولي مفهوم التجديد عند السيوطي على أنَّ التجديد عبارة عن كسرٍ لهذا الجمود النَّصي وإزالة للصدأ الذي أحاطه الزَّمان بجوهر العقيدة السمحة ، وهذا الصدأ هو البدع التي تحوَّلت بمرور الزَّمان وجريان العادة إلى نصوصٍ مقدَّسة ، ومن ثَمَّ فإنَّ مفهوم البدعة يرتبطُ في الثقافة الإسلامية بمفهوم الجمود ، وليس بمفهوم التجديد والمرونة .

طبيعة النص السلطوي التاريخي

ولذلك نجد أنَّ كثيراً من النصوص الجامدة التي عدَّت أصولاً لمذاهب عقيدية وفقهية ، أو اتَّجاهات فكرية وأدبية ونقدية عديدة نشأت واكتسبت سطوتها من هذه السُّلطة التاريخية ، وليس من حجَّيتها أو صدقها أو صحة نسبتها إلى الدين ، ولكن لأنها من أقوال الأسلاف وآراء المشايخ ، ومن ثَمَّ تحوَّلت المريدون في كلِّ مذهبٍ من هذه المذاهب إلى عبدة للنصوص .

وما تأويلات الفرق الإسلامية المختلفة وشروحها للنص القرآني وللسنة المشرفة إلا من هذا القبيل ، ومثل ذلك النصوص التي تُسبَّت إلى أشخاص أضفى عليهم الزَّمان ألواناً من التَّبجيل والقداسة ، ومثل ذلك



أيضاً الحِكَمُ الماثورة، والأمثال المضروبة، والرُّقى والتعاويذ وحكايات الأسلاف وقصص المعمرين .

ولعلَّ أكثرَ النصوص التي اكتسبت قوتها من التاريخ هي النصوص التي تحتوي أفكاراً وقيماً دينية، أو غيبية، أو كانت شروحاً وتعليقات على كتابات دينية، حتَّى اختلطت منابعُ السُّلطةِ الدينية في كثيرٍ من النصوص بهذا النوع من السُّلطةِ التاريخية، بل إنَّ كثيراً من الناس وقروا نصوصاً لا تستحقُّ التَّوقير، اعتقاداً منهم أنَّها من الدين، لمُجرَّد أنَّها محكية من السلف، وذلك مثل الأقوال المنسوبة إلى حسان اليماني، أو الحكايات والأخبار التي كان يرويها وهب بن منبه واحتفظ بها المُفسِّرون في كتبهم حتى اليوم، رغم أنَّ الطَّاقة التَّأثيرية الدينية التي يحميها النص القرآني ليست نابعة من عبادة النص أو سُلطة التاريخ، بل على العكس من ذلك هي نابعة من وضوح الحقِّ الذي يكشفه القرآن، ومن قوة البيان الذي يوضِّحه، ومن ثورته الدائمة على السُّلطة التي تتسرَّب من مرور الزَّمان وتكرار العادات .

وذلك لأنَّ الدين مثل العلم ومثل الفلسفة في كونها جميعاً بحث عن الحقيقة، وإنَّ كانَ البحثُ عن الحقيقة عن طريق الدين مُختلفة؛ لأنَّه يتعلَّق بمجالٍ أبعدُ من المجال الذي يبحثُ فيه العلم، وأدوات البحث فيه تختلف عن أدوات كلِّ من العلم والفلسفة، فالعلمُ مجاله محصورٌ في حدود الطبيعة (المواد الفيزيقية)، ولا يتجاوزها إلى ما وراء الطبيعة، وأدائه التجريبية، والفلسفة أدواتها المنطق والمقاييس العقلية كالبرهان والاستنباط، أمَّا طريقُ البحث في الدين فتعتمدُ على الكشف عن الحقيقة بطريقةٍ فطريةٍ ومُباشرةٍ، عن طريق العقل والقلب معاً، هو انكشاف، يُشبه رؤية الأشياء على حقيقتها بالعين المُجرَّدة عند انجاس



النُّور فجأة بعدَ الظلام، رؤية ثاقبة لعين الحقيقة وليسَ فقط لمُجرّد البراهين المنطقية الموصّلة إليها، وهذا هو جوهرُ الإيمانِ وغايته، مُجرّد انكشاف الحقائق ورؤيتها بعدَ أن يسطع النُّور الإلهي عليها، ولذلك فإنَّ الله تعالى أطلقَ على الهدى الإلهي اسمَ النور، في قوله ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (الزمر/22)، ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (المائدة/15)، ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ (التوبة/32)، ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النور/35)، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (النور/40)، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (الصف/8)، ووصفَ الكفر بأنَّه غشاوةٌ تحجبُ الرؤيةَ عن القلبِ أو تُصيبُه بالعمى القلبي في قوله ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْرِ اللَّهِ أَقَلًّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية/23)، وسمَّى ساحة الكُفر ظلماتٍ في قوله تعالى ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة/257).

ومن هذه الزاوية فإنَّ المؤمنَ باحثٌ حثيثٌ عن الحقيقة، أو مُكلَّفٌ بالبحث عنها، يُنشد الحقَّ أنَّى وجده "فالحكمة ضالة المؤمن" فإذا عثر عليها ورآها عين اليقين أيقن بها، ليس نتيجة لسلطة قاهرة خضع لها، بل نتيجة بإيمانه بأنَّ ما رآه هو الحقُّ، ولذلك فإنَّ الإسلامَ كلَّف كل فردٍ في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ بأن يكتشف الحقيقة بنفسه، وأن يرى بعينه هو لا بعيني سواه، ومن ثمَّ فإنَّه مسئولٌ مسئولية ذاتية عن أفعاله، يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

وَلَا تُكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ . ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر/18) .

ومن ثم فإن النص الديني المنزل - في جوهره - ليس نصاً سلطوياً جامداً يقهر مُريديه ، بل إن محتواه مُجرد نور دائم السطوع يكشف الحقائق أمام ذوي الأبصار ، يقول الله تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف/3) .

فإذا جاء إنسان بعد ذلك وألغى عينيه واكتفى بالسير وراء إنسان آخر ضلّ وأضله أصبح هذا الإنسان التابع حاملاً لبوزرين : الضلال والتنازل عن حرية الإرادة التي سمّاها الله تعالى (الخلافة في الأرض) يقول الله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (166) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة/166، 167)، وهذه هي حقيقة التقليد ومبعث النص السلطوي المتمسح بالدين .

وليس الدين وحده ابتلي بهذه الآفات (آفات الكسل والتقليد ونشأة النصوص التسلطية)، بل هي ظاهرة شملت طرق البحث عن الحقيقة من جهاتها الأربع، الدين والعلم والفلسفة والفن، فكل واحد من هذه النماذج الأربعة بحث عن الحقيقة بأسلوبه الخاص، واجتهاد يصدر عن الحرية التي وهبها الله للإنسان . وكل منها ثمت على ضفاف



مجراه طفيليات نصوص جامدة مُقلّدة تولّت بمرور الزمان إلى سدود وموانع كدّرت صفو منابعه .

- فالإيمان - كما رأينا - بحث عن الحقيقة عن طريق الاهتداء القلبي للحقائق ورؤيتها بنور الله .

- والفلسفة في جوهرها بحث دائم عن الحقيقة عن طريق البرهان والاستدلال العقلي والاستقراء المنطقي .

- والعلم بحث دائم عن الحقيقة باكتشاف القوانين العامة التي يتحكم الظواهر الطبيعية عن طريق التجربة أو الاستدلال الرياضي .

- والفن أيضاً بحث دائم عن الحقائق في وجهها الجزئي المتفرد الذي لا يتكرر .

فهذه الجوانب الأربعة رغم اختلافها ، بل تقابل كل ثنائية منها تمثل ذروة الحرية الإنسانية في أكمل صورها .

على أن كثيراً من النصوص التي أصبحت ذات سلطة تاريخية كانت إبان ظهورها وحياً دينياً وتجلياً روحياً ، أو كانت نظريات علمية مبتكرة ، أو إبداعاً أدبياً رفيعاً ، لكن الذي منحها هذه السلطة هو الضعف الإنساني للمتلقين لهذه النصوص ، ذلك الضعف الذي أضعف قدراتهم العقلية فجعلهم يُقلّدون في مجال العلم فيُلقّنونه تلقيناً لمن بعدهم ، وجعلهم يُحوّلون مناهج البحث الفلسفي إلى مذاهب عقدية جامدة ، وأضعف قلوبهم وأعماها في مجال الإيمان فحوّلوا الدين إلى مجموعة من الطقوس .

مفتاح السر في سلطة النص الذي يستمد قوّته من التاريخ إذن يكمن في ضعف المتلقين ضعفاً يجعلهم يهربون من واقعهم المادي ، ومن



حالة الجهل التي تُحيط بهم، ممّا ينشأ عنه عدم التوارن بينهم وبين النص، إذ يتمتّع النص في هذه الحالة بسلطة مُطلقة على القارئ الضعيف المُستكين، يحبسه في دائرة مُغلقة، يبطش به ويستعبده يُخلّق به في عوالم الوهم الخرافة، ومن ثمّ فإنّ القارئ حينئذٍ يتعامل مع النص تعاملًا سلبيًا، ويقتصر دوره معه على مُجرّد القبول، قبول الإنسان العاجز المُكبّل الذي لا يجرؤ على الاعتراض أو الرفض أو المناقشة، ولا يُمكنه إلا الخضوع والتسليم.

ويزداد النص التاريخي سلطة وتأثيراً إذا أمدّته عناصر أخرى غير الزمان، مثل العناصر الجمالية، كأن يكون النص موقعاً توقيعاً موسيقياً كما هو الشأن في سجع الكهان، وفي قصائد الذكر والإنشاد وحفلات الزّار، أو أن يكون مسروداً، أو يحتوي موضوعات غيبية سحرية أو دينية، أو يتعلّق بتفسير ظواهر طبيعية يعجز المُتلقي عن تفسيرها، كما هو الشأن في الأسطورة.

على أنّ هذه الظاهرة ذات طابع عالمي وليست الثقافة العربية وحدها هي المُبتلاة بهذا الدّاء، ولم تكنُ العصور القديمة وحدها هي التي أثمرت هذا النوع من تلقّي النصوص، بل هو آفة من الآفات التي تتخرّج في عظام الحضارات الإنسانية قديماً وحديثاً عندما تدبّ فيها الشيخوخة، فمن المعروف أنّ نصوص أرسطو قد اكتسبت في أوروبا في العصور الوُسطى قدسية تكاد تضارع قدسية الكتاب المُقدّس نفسه، وتعرّض العلماء من أصحاب النظريات العلمية الجديدة للحرق والتعذيب لمُجرّد أنّ أفكارهم كانت تتعارض مع النصوص الأرسطية.

بل إنّ الحضارة الغربية الآن تشهد ما هو أسوأ من غواية التراث والسلطة التراثية، وهو صناعة هذه السلّطة التراثية أو تزيفها، عن طريق



تصوير بعض الوقائع التاريخية على أنها مُسلّمات أو مُحَرّمات، أي على أنها نصوص تاريخية مقدّسة لا يجوز البحث فيها أو إبداء الآراء حولها، ومُعاقبة كل مَنْ تُسوّل له نفسه أن يُيدي حولها رأياً، كما هو الشأن مع النصوص التاريخية الخاصة بال محرقة النازية أثناء الحرب العالمية الثانية .

نماذج من النصوص التي منحها التاريخ سلطته :

النموذج الأول : السلطة التاريخية للنص في التراث الديني :

هناك مُشكلة في التعامل مع المصدر الإسلامي للتشريع يم يتبّه لها الكير من الباحثين، وهي أن المُسلمين بعد عهد الصحابة رضوان الله عليهم تعاملوا مع مُصطلح (النص التشريعي للإسلام) بمفهومين مُختلفين:

المفهوم الأول : أن هذا النص عبارة عن كائن حي يؤدي مُجمل المبادئ العقدية والتشريعية التي أنزلت على النبي - صلى الله عليه وسلّم - وأمر بالعمل بها وبتبليغها للناس، والمُتمثلة في القرآن الكريم وفي أقوال النبي - صلى الله عليه وسلّم - وفي أفعاله وما ارتضاه من أفعال الصحابة .

المفهوم الثاني : أن النص هو تلك الآثار اللغوية أو الأدائية المُتمثلة فيما حواه المُصحف الشريف من آيات أو ما رُوي عن النبي - صلى الله عليه وسلّم - من أحاديث ومن الصحابة من أعمال .

والفارق بين المفهومين أن المفهوم الأول يتعامل مع النص التشريعي على أنه بنية حيّة مُتكاملة لها روحها الذي يتلبّس بجسدها، وكل عنصر فيها يؤدي وظيفة حيوية مُتفاعلة مع سائر العناصر الأخرى، ليؤدي في مُجمله إلى تحقيق الوظيفة الحيوية للعقيدة والشرعة اللتين

تصلحان لكل زمان ولكل مكان، وتلقي بنورها على الدنيا فيهتدي الناس إلى الحق .

أما المفهوم الثاني فيتعامل أصحابه مع النص التشريعي على أنه مجرد جسد هامد مُكوّن من كلمات وجُمَل ومواقف وأفعال ساكنة تنتمي إلى مرحلة تاريخية مُحدّدة، جسد ساكن كسكون أي جسد بعد خروج الروح منه، وإذا انتفع أحد بهذا الجسد بعد عصره فإنما ينتفع به على أنه مادة محفوظة مُعلّبة تحمل رائحة عصرها القديم، وقد تعامل أصحاب المفهوم الثاني مع الجسد النصي بطرق مُختلفة :

الطريقة الأولى : أنهم قطعوا أوصال هذا الجسد إلى أشلاء مُمزّقة، وأخذوا منه ما يتلاءم مع مذاهبهم التي ابتكروها أو التي اقتبسوها من عقائد أخرى وطوّعوها لحياتهم العقيدية الخاصة، أو استخدموا من هذا الجسد المُمزّق قطعة أو أكثر لتكون مُجرّد واجهة يُعلنون بها ولاءهم الشكلي للشرعية، حتّى لا يُعرّضوا أنفسهم لنفور العامة أو عقاب الأمراء، أو ليحتجّوا بها على خصومهم، ومن ثمّ تتحوّل هذه القطعة وغم نفاسة منابعها إلى تميمة أو إلى طلسم أو طوطم لا حياة فيه، لأنّها - من ناحية - فصلت عن سائر الأجزاء الأخرى، ومن ناحية أخرى فقدت روحها وحيويتها وأصبحت مُجرّد مادة لغوية أو حكاية مُوظّفة لخدمة بنية أخرى هي بنية المذهب أو الفرقة التي ينتمي إليها أصحابها .

مثال ذلك ما يرويه ابن قُتيبة من أن كل فرقة من الفرق الإسلامية المُختلفة بل المُتلاحرة تعلّقت بنص من الحديث النبوي أو من القرآن الكريم واحتجّت به لتدل على سلامة مذهبها؛ فالخوارج مثلاً يحتجّون بروايتهم لحديث " ضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا



خضراءهم " وبحديث " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم خلاف من خالفهم " .

والقاعدون المستكينون لسطوة الحُكَّام الظَّلَمَة يحتجُّون بحديث :
" اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عبد حبشي مجدع الأطراف " .
والمُرَجَّة يحتجُّون بحديث : " من قال لا إله إلا الله فهو في الجنة ولم تمسه النار " .

والقدرية يحتجُّون بحديث : " كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه أو يُنصرَّانه " .

والرافضة يحتجُّون في إكفارهم للصحابه بحديث : " لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض " { راجع ابن قتيبة (تأويل مختلف الحديث) صص 6:3 } .

وهكذا نجد كل فرقة تقطع جزءاً وتستخدمه مادة لتقوية كائن آخر مبتدع، فإذا تعارضت أجزاء أخرى معه أنكروها أو أولوها بما يتلاءم مع هذا المذهب الذي أصبحت نصوصه أصناماً لُغوية تفوق في نفوس المريدين من أتباعها قداسة النصوص القرآنية نفسها، فقد رُويَ " أن التلمساني لما قرئ عليه كتاب الفصوص المنسوب لابن عربي فقليل له: القرآن يُخالف فصوصكم، فقال : القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا " .

الطريقة الثانية : أنهم أحياناً تعاملوا مع النص بصورة شاملة لكنهم تعاملوا معه أيضاً على أنه جسد أو مادة لُغوية جامدة، والمادة عادة مُرتبطة بالمكان والزمان، أي بالملابسات التاريخية، ولذلك فإنهم قلّدوا أفعال الذين عاشوا في هذه الفترة تقليداً حرفياً، ولا يُفرِّقون في

ذلك بين مُقتضيات الأفعال التي تُوحي بها الشريعة ومُقتضيات الأفعال التي هي لوازم الزمان والمكان الذي عاش فيه الصحابة، والتي لم تتكرها الشريعة ولم تلزم الناس في كل الأزمان والأمكنة بها، أو في طريقة تطبيق السلف للشريعة، أو في طريقة حياتهم الخاصة مثل أشكال الملابس والمطاعم والمساكن وأساليب العلاج والتداوي من الأمراض، وأساليب القتال وإثبات الأدلة في الجرائم وطُرق الحكم وإجراءات التقاضي، بل كيفية رؤية الحقائق ورؤية العالم وسائر طُرق المعيشة الأخرى، إنهم هؤلاء الناس أخذوا المرحلة الزمانية المكانية بكل ما فيها وقلّدوا أصحابها تقليداً وأحاطوا سلوكيات هذا العصر وأسلوب معيشة أهله. والذي لا يلائم عصرهم - بسياج من القداسة ونظروا إلى كل ذلك على أنه هو النص، ممّا دفع الكثيرين منهم إلى العيش في الزمان الماضي رغم وجوده بجسده في الزمان الحاضر، بل أدّى بالبعض إلى إنكار الحقائق ومُكتشفات العصر الحديث مثل كروية الأرض أو دورانها حول نفسها.

الطريقة الثالثة: أن فريقاً منهم عظم النصوص الدينية ووقّرها توقيراً جاهلياً، أي أنه حوّلها إلى طقوس وتماائم وأحجبة، بحيث يقرأ القرآن فقط لجلب البركة في البيت أو لدفع المضرة عن المرضى، أو على أنه طقس من طقوس تشييع الموتى، أو يُوضع المصحف في السيارة بوصفه تميمة لحمايتها من الأرواح الشريرة، أو يدّخر صحيح البخاري ليحلف عليه المُتخاصمون عند المنازعات.

بالإضافة إلى ذلك فإن أصحاب هذه الاتجاهات لم يكتفوا بالتعامل مع مصادر التشريع الإسلامي هذا التعامل الطقوسي بل حوّلوا كثيراً من الكتابات التي تركها بعض المُجتهدين الأوائل إلى طقوس،



وهي المعروفة بالنص الوسيط في الثقافة الإسلامية ، وهو عبارة عن شروح وتعليقات كتبها العلماء حول النص القرآني أو حول الحديث النبوي الشريف ، ثم اكتسبت بمرور الأيام قوة وسلطة بل قداسة عند كثير من الناس ، وأصبحت أصولاً موازية للنص الأصلي ، بل ربّما أوّلت النصوص الأصلية تأويلات بعيدة لكي تتلاءم مع هذه النصوص ، ومن ثمّ أصبحت النصوص الوسيطة أصولاً لمذاهب وفرق سار الناس فيها خلف قائلها من غير تدبّر أو فكر وصار النص الأصلي فرعاً لها .

وفي كل فترة من الزمان يأتي مُصلحون يُحاولون كسرَ هذه السُلطة المُبتدعة ، ويُقرّرون المفهوم الصحيح للشريعة والذي يُحرّر الإنسان من هذه السُلطة الجاهلية الغاشمة ويفهم الشريعة على أنّها تحرير للإنسان وليس استعباداً له ، وهؤلاء هم المُجدّدون ، لكن في كل عصر يظهر فيه هؤلاء المُجدّدون نجد من يُدافع عن التقليد والجمود ، لأنّ هذا الجمود صنع طبقات من رجال الدين المُستفيدين الذين يستغلّون هذه السُلطة التاريخية لصالحهم ، فيضفون على أنفسهم نوعاً من القداسة باعتبارهم سدنة هذه النصوص ، فيعملون وسع طاقتهم على تقوية هذه السُلطة التاريخية التي هي مصدر سُلطتهم ، ويتخذون لأنفسهم مواقعاً ورتباً رسمية سُلطوية ، والساسة في كثير من الأحيان يُباركون هذا التقليد ويعضدون هذه السُلطة ، ويمقتون التجديد والثورة على الجمود ، إذ يُحرّكهم "الخوف" . كما يقول الشيخ محمد عبده . من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنشر عدواه فيتنبّه غافل آخر ، ويتّبعه ثالث ، ثم ربّما تسري العدوى من الدين إلى غير الدين إلى آخر ما يكون من حرية الفكر " {الإسلام والنصرانية 110} .



النموذج الثاني : السُّلطة التاريخية للنص في التراث الأدبي والنقدي :

الإبداع الفني في جوهره ممارسة للحرية الإنسانية في أجمل صورها ، ففيه ينطلق الإنسان من قيود الواقع ليُخلّق في سماءات الخيال ، ومن قيود المنطق ليمرح في عوالم جميلة راقصة لا يحكمها العقل بل سحر الجمال ، وفي طريقها تتخطى مواضع اللغة وتكسر التقاليد وتتجاوز الصور الموروثة والأشكال المكررة الرتيبة والتقاليد الفنية العتيقة ، ومن ثمّ فإنّ الإبداع نقيض بل عدوّ عنيد للسُّلطة التاريخية .

ولذلك فإننا نجدُ خصومة شبه دائمة بين المحافظين المُقلّدين المُحبّين للقديم مُجرّد قدمه ، وبين المُبدعين المُبتكرين المُتطلّعين لكل جديد ، وقد ظهر ذلك واضحاً في التراث العربي ، فمن النقاد مَنْ كان يُنكر شاعرية أبي تمام ، ومنهم مَنْ كان يُنكر شاعرية المُتنبّي ، ومنهم مَنْ كان يُنكر شاعرية الشعراء المُحدثين جملة لا لشيء إلا لأنهم خالفوا القديم وكسروا عمود الشعر العربي .

ولذلك فإنّ ابن قتيبة في مقدّمة كتابه الشعر والشعراء يقول : "فإنّي قد رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدّم قائله ويضعه في مُتخيّره ، ويرذل الشعر الرّصين ولا عيب له عنده إلاّ أنّه قيل في زمانه أو أنّه رأى قائله " { الشعر والشعراء ص 6 } . ويروي أبو الفرج الأصفهاني أنّ أبا عمرو بن العلاء كان يقول : " لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدّمت عليه أحداً " ، ويروي أيضاً أنّ العتابي كان يقول عن أبي نواس : " لو أدرك الخبيث الجاهلية ما فضل عليه أحد " .

وقد تحوّل إشار القديم إلى تقاليد راسخة كبّلت أسنة الشعراء بقيود القديم وعرفت في العصر العباسي بعمود الشعر العربي ، وكان البديع هو الثورة التي تمرّدت على هذه الأغلال لكن سرعان ما تحوّل



البديع على أيدي أرباب التصنع إلى أغلال أخرى وتقاليد موروثة كانت أكثر تقييداً للشعراء من عمود الشعر نفسه، فتحوّلت ملامح الابتداع الحر إلى قواعد تسلطية وتزاويق لفظية خنقت المعاني الشعرية وأستعبدتها، وأصبحت المعاني محبوسة في قماقم الجناس والطباق والسجع وغيرها من أشكال البديع

النموذج الثالث: التفكيك والسلطة التاريخية للمعنى في النص الفلسفي :

ذهب التفكيكيون إلى أنّ الحضارة الغربية نهضت بالاعتماد على تضخيم سلطة العقل، والإعلاء من شأن المنطق، حتى أصبح المنطق هو المعيار الحاسم في تقييم أي شيء، وفي بيان أهمية أي شيء، حتى تحوّلت هذه السلطة بمرور الزمان، إلى خرافة صدّقها الأوروبيون، فكل شيء لابد أن يتصوّر له العقل الأوروبي معنىً ومنطقاً ونظاماً هرمياً يتلاءم مع العقل، ولذلك فإنّ دريدا يرى أنّ العقل الأوروبي منذ أفلاطون عقل يعتمد على خرافة المركزية، لأنّ هذا العقل الأوروبي لا يتصوّر شيئاً دون أن يكون لهذا الشيء مركز يستند إليه، وبدون وجود هذا المركز لا يتصوّر العقل الأوروبي أن يكون هناك منطقاً ولا معنىً لشيء ما، وهذا عند دريدا محض خرافة ميتافيزيقية .

فدريدا يرى أنّ الفكر الأوروبي يتصوّر أن هناك دائماً أصلاً بمثابة النواة أو المحور الأصلي، وأنّ هناك أشياء ثانوية مُسندة إليه، وتابعة له تدور في فلكه، وتكون بالنسبة له كالحاشية بالنسبة إلى المتن ، والتابع بالنسبة للمتبوع .

مثال ذلك أنّ الفكر الأوروبي يجعل الخير أصلاً وينظر إلى الشر على أنّه فرع له، ويرى أنّ الرجل أصل وأنّ المرأة فرع له، ويرى أنّ الصوت اللغوي أصل والكتابة فرع له، ومثل ذلك العلاقة بين الحاكم

والمحكوم، وبين المُعلّم والمتعلّم، وبين الروح والجسد، وهكذا يرى دريدا أنّ هذه التراتبية مُجرّد وهم ميتافيزيقي ينبغي كشفه وتفنيدّه، لأنّ كل طرف من طرفي هذه الثنائيات أصل وفرع في وقت واحد، كل منهما يحتاج إلى مُكمل له هو الطرف الآخر.

ويرى دريدا أنّ السبب الذي دفع الفكر الأوروبي إلى ذلك أنّ ربط بين الوجود والحضور، أو خلط بينهما، بمعنى أنّ هذا الفكر يُعدّ كل حاضر موجود، ويُعدّ ما ليس حاضراً ليس موجوداً، وهذا حسب دريدا وهم ميتافيزيقي أيضاً، لأنّ قضية الوجود الموضوعي أو عدمه قد لا ترتبط بالحضور، إنّها ترتبط بالمعرفة، لأنّ الحضور ليس إلّا وعياً أو إدراكاً للشيء، فقد يكون الشيء موجوداً وجوداً موضوعياً وفي الوقت نفسه خارج عن دائرة الوعي فلا يكون حاضراً.

لقد استند الفكر الأوروبي في فهمه للنص وفهمه للعالم كله . باعتباره نصاً . كما يذهب دريدا . على مركزية ميتافيزيقية صنعها هو ثمّ صدّقها وأسند إليها كل تصوّراته وبنى عليها كل أنظمتها الفكرية والفلسفية والنقدية، فنخيل أنّ لكل شيء بنية ونظاماً، ومن ثمّ تخيل هذا العقل أن يكون لكل بنية معنى .

على خلاف ذلك يرى دريدا أنّنا إذا جرّدنا أي نص من هذا الوهم الميتافيزيقي فإنّه يصبح مجرّد مجموعة من كلمات لغوية حُرّة أو مجموعة من العبارات المتوالية التي تحتل ما لا يُمكن إحصاؤه من المعاني المُغيّرة، فالنص من وجهة النظر التفكيكية مُجرّد محك لتزايد المعاني التي لا تتمتع بالثبات أو الموضوعية لأنّها تفتقد أي مركز تستند إليه .



النموذج الرابع : مناهج التعليم والسلطة التاريخية للنص العلمي :

عندما تتحوّل النظرية العلمية إلى عقيدة راسخة تتخلّى عن علميتها وتصبح هذه النظرية صنماً فلا أصل في العلم أنّه اكتشف مُتجدّد ، ويبحث دائماً عن الحقيقة لا يعرف الثبات ، لأنّ كل نتيجة يتوصّل إليها العالم تحمل بداخلها بذور الشك فيها ، ولذلك ينبغي على الأساتذة أن ينقلوا إلى طلابهم هذه الروح التي تخلع عن النص العلمي قداسته التي قد يمنحها له التاريخ أن يخلخلوا في عقولهم الثقة في يقين النتائج التي استقرّت في البحوث العلمية التي اكتسبت سمة القداسة بسبب قدمها وعراقتها وبسبب الهالة الضخمة التي أحاط الناس بها أصحابها .

عندئذٍ يمكن للطال أن يُسائل النص ويختبره ويتعامل معه على أنّه يحتمل الصواب والخطأ ، ومن هنا يفتح أمامه باب الابتكار ، وليس ذلك مطلوباً في مجال العلوم الطبيعية فقط بل في العلوم الإنسانية أيضاً .

ومن النماذج الملموسة التي رأيناها للصراع بين السلطة التاريخية الرأسخة للنص العلمي وبين كسر هذه السلطة في مجال تعليم العلوم الإنسانية ، تلك المعركة التي دارت رحاها في نهاية الربع الأول من القرن العشرين حول كتاب (في الأدب الجاهلي) الذي ألفه طه حسين ودرّسه لطلّابه ، فتلك المعركة لم تكن إلاّ صراعاً حول المنهج الذي ينبغي اتّباعه لتعليم النصوص الموروثة في مجال التاريخ الأدبي .

أهم المراجع

- 1- ألفين توفلر : تحوُّل السُلطة ترجمة لبنى الريدي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1995م .
- 2- أمين الخولي : مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- 3- عبد الرحيم الكردي، القراءة التفكيكية للنص، بحث مُقدِّد في المؤتمر الذي انعقد في كلية الآداب جامعة القاهرة سنة 2007م بعنوان مناهج دراسة الأدب العربي .
- 4- عبد الرحيم الكردي : مفهوم التجديد عند جلال الدين السيوطي بحث ألقى في المؤتمر الأول لكلية آداب أسيوط الذي عقد سنة 2003م بعنوان التجديد عند جلال الدين السيوطي
- 5- عبد الرحيم الكردي : النقد التاريخي للأدب بين طه حسين ومحمد لطفي جمعة، في كتاب (السرد ومناهج النقد)، مكتبة الآداب، القاهرة، سنة 2006م .
- 6- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي الدينوري : تأويل مختلف الحديث، تحقيق : محمد زهري النجار، دار الجيل . بيروت، 1393هـ - 1973م .
- 7- عبد الهادي عبد الرحمن : سلطة النص قراءة في توظيف النص الديني، المركز الثقافي العربي سنة 1993م .



8. محمد رشيد رضا : تفسير المنار . الشيخ محمد عبده ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة 1990م .
9. محمد عبده : الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، دار الشروق ، سنة 1992م .
- 10- محمود بن عمر الزمخشري (أبو القاسم جار الله الزمخشري) :
الكشاف في حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل ، دار
الفكر ، القاهرة ، 1973م .

